

# النثر الفنى عَرَبِيَّةُ النَّسَاءُ

أستاذ الأدب العربي  
 بكلية دار العلوم  
جامعة القاهرة

لـدكتور أamer الموفي

لست أريد أن أناقش قضية الشعر والنثر وأيهما أسبق ، بل أريد أن أناقش ما ذهب إليه المسيو مرسى من جهل العرب للنثر الفنى حتى ظهر عبد الحميد وابن المدفع ، وأن أناقش ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن نثر عبد الحميد وابن المدفع كان أول نثر فنى نشر فى قرائته بمعتمدة .  
وسأتاين فى هذه المناقشة النثر الفنى بقسميه : خطابة وكتابة منذ الجاهلية إلى عصر عبد الحميد وابن المدفع .

ثم تابعه الدكتور طه حسين ، فذهب إلى أن الشعر سبق النثر الفنى ، ورأى أن مطلع القرن الثاني الهجرى هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد نشأة النثر الفنى ، وفي رأيه أن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية هو عبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المدفع ، وإن كان قد عاد فاكم اصالة النثر الفنى عند العرب ، وأنهم لم يستعيروه من غيرهم .

ولست أريد أن أناقش قضية الشعر والنثر وأيهما أسبق ، بل أريد أن أناقش ما ذهب إليه المسيو مرسى من جهل العرب للنثر الفنى حتى ظهر عبد الحميد وابن المدفع ، وأن أناقش ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن نثر عبد للحميد وابن المدفع كان أول نثر فنى نشر فى قرائته بمعتمدة .

وسأتاين فى هذه المناقشة النثر الفنى بقسميه : خطابة وكتابة منذ الجاهلية إلى عصر عبد الحميد وابن المدفع .

ليس من شك فى أن العرب قوم ذوو لسان وبلغة

في أدبنا العربي ، وفي تاريخنا الإسلامي ، وفي ثقافتنا وحضارتنا وتراثنا بعامة ، في هنا كله قضايا ما زال كثير منها يعوزه البحث والتقصي والتصفيه والجلاء .

ومن هذه القضايا نشأة النثر الفنى .

فقد رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفنى معرفة ذاتية ، بل نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان .

ومن مؤله المسيو مرسى ، إذ رأى أن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المدفع الفارسي الأصل ، وذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال .

وعلل هذا بأنهم كانوا يعيشون حياة أولية بدائية ، وهي لا تقتضي نثرا فنيا ، لأن النثر الفنى لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائم هذه الحياة الشعر ، لأنه لغة العاطفة والخيال .

ولكننا ما زلنا في حاجة إلى تصوّص نطمئن إليها في التدليل على معرفة الغرب للتراث الفنى قبل الإسلام ، لأن الشك يخامر ما روى عنهم من خطب ووصايا ورسائل ، وإن كان فقدان هذه النصوص التي نطمئن إلى صحتها لا ينهض دليلاً على جهالتهم بالتراث الفنى .

وعلمون أن للعرب في جامليتهم أمثالاً كثيرة ، سلم بعضها من النساء والأغفال ، ويقي إلى أن دون ، وربما كان أقدم مصدر لهذه الأمثل المدونة نعرفه اليوم هو كتاب المفضل الضبي المتوفى سنة ١٧٤ م.

ولسنا نرتاب في نسبة هذه الامثال الى العصر الجاهلي كما نرتاب في الخطب والوصايا ، لأن في طبيعة الامثال ما يكفل بقامتها زمناً طويلاً ، فعياراتها قصار يسهل حفظها ويفاؤها وتدالوها ، والناس كلفون بتزديدهما والاستشهاد بها ، لأنها تمثل تجارب سابقيهم وأراءهم وأحكامهم ولأنها مرتبطة بأحداث سابقة كثيرة ما يشاهدون نظائر لها ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ، ويرددونه في الحديث الحاضر . ثم أنها تصور الوانا من أخلاق البشر وطبعهم كانت صادقة في تصويرها حينما قيلت ، ولا تزال صادقة في تصويرها حيثما ينتمي بها مردودها .

ولكن ما علاقة الامثال الجاهلية بالنشر الفني ؟ .

في كثير من هذه الامثال صفات ترتفع بها عن اللغة المألوفة في الحياة المعتادة إلى لغة فيها براءة وافتتان.

٢ - فهي مرسلة في تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، فيه أحياناً عنابة بالجرس والتوازن والإيقاع ، ولهذا نجد فيها سجعاً وتماثلاً في عدد الكلمات ، مثل : « اندرعوا الليل ، فانه أخفى للويل » ومثل : «اليوم خمر وغداً امر » ومثل : « رب عجلة تهب رينا ، ورب فروقة يدعى ليشا ، ورب غيث لم يكن غيناً » ، ومثل : « ان البغاث بارضنا يستنسر » ومثل : «تاجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» ، ومثل : « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

٣ - وهي أحياناً تعتمد على مجاز أو كناية أو تشبيه أو استعارة ، لتوحى بالمعنى المراد في ثوب من الحال ،

وبين ، وأنهم كانوا كلفين بروعة التعبير ، وجمال التعبير ، ورشاقة الأداء ، والتحرر من زلل الكلام وركاكتة المقال .

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى : « ولترفه عن لحن القول » وفي قوله : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ضد الخصم » .

وقال انبني صلي الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلّم مادحًا ثم قادجا ، ومعلاً لمدحه وقدحه : «ان من البيان لسحرا » .

ولهذا كانت معجزة النبي من جنس ما تميزوا به ، وهو بلاغة المنطق ، وروعة التعبير ، وساحر البيان .

- 2 -

نعم كان القرآن الكريم هو المعجزة العظيمة في  
تبیان العربی ، شدة العرب بافتخاره ، فتاظمروا لبلاغته ،  
سواء في ذلك من شرح الله صدورهم للاسلام ، ومن  
اصرروا على الكفر والعناد .

أما الذين اسلموا فقد آمنوا بـ القرآن منزل على  
النبي من عند الله .

وَأَمَّا الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا فَأَنْتُمْ أَيْقُنُوا بِأَنَّ الْقُرْآنَ طَرَازٌ  
مِّنَ الْبِلَاغَةِ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ ، وَلَكُنْهُمْ زَعُومُوا أَنَّهُ مِنْ  
صُنْعِ النَّبِيِّ ، وَزَعُومُوا أَنَّهُ اُوتِيَ مَقْدِرَةً خَارِقَةً ، فَأَنْتُمْ هُوَ  
بِأَنَّهُ سَاحِرٌ وَبِأَنَّهُ شَاعِرٌ .

وإذا كان القرآن شرورة البيان العربي ، ونزل بلسان عربي كما يصفه الله تعالى ، فإنه من الطبيعي أن يكون العرب قبل الإسلام قد مارسوا النثر الفنى ممارسة اعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن ، فان الله تعالى يقول « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » . ثم أن الله تعالى تحداهم في عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذي عرفوه والفوه وتباموا به ما تحداهم هذا التحدي ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الاموال ، قال تعالى : « قل لئن اجتمعوا الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لي بعض ظهيرا » .

وقول أبي قريرة الطائي في رثاء ابن عمارة الطائي  
أن قاتلها حرموا الناس كرمه العظيم ومنطقه الجميل  
الاخاذ الذي يشبه الثوب الموشى باليمين :  
يا جفنة كازاء الحوض قد مدموا  
ومنطقا مثل وشى اليمنة الحبرة

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لأن الكتابة  
كانت نادرة ، وإنما كانوا يفكرون في مقاهم ، ويجهرون  
ويزبونه ، ثم يسترسلون ، يقول الجاحظ : « كان  
الكلام البائت عندم كالمنتصب اقتدارا عليه » ، وثمة  
بحسن عادة الله عندم فيه ، وكانت مع ذلك إذا  
احتاجوا إلى الرأي في تعاظم التنبير ومهمات الامور  
نزلوه في صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومه  
الثقاف أبزووه محكما منقحا ومصفي من الأذناس مهذبا ،  
ومعنى هذا أنهم كانوا يعدون أحيانا إلى الاعداد  
والتبين والتنمية ، كما كان يفعل كثير من الشعراء .  
ثم جاء الإسلام فازدادت الخطابة رفعة وقوة ، وكثرت  
الخطب المعدة التي تتبين من قرامتها مظاهر التائق  
والتجويد والتربيب ، سواء أكان الاعداد مكتوبا أم غير  
مكتوب ، يدل على هذا أن عمر بن الخطاب قال إنه كان  
في يوم السقيفة قد زور - أعد وحبر - كلاما يقوله ،  
ولكن أبي بكر استهلله وتكلم ، فلم يدع شيئا مما كان  
عمر يريد أن يقول .

وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر ، فارتज عليه ،  
فقال : « إن أبي بكر وعمر كانوا يعدان لهذا المقام مثلا ،  
وأنتم إلى أمام عايل أحوج منكم إلى أمام خطيب  
وستاتيكم الخطب على وجهها إن شاء الله » .

وهذا النص صريح في أن أبي بكر وعمر كانوا يعدان  
خطبهما ، أو بعض خطبهما وفيه أن عثمان قد فوجيء  
وهو غير مستعد ، فوعدهم بأنه سعيد خطبه ، لتجيء  
على النسق الذي يرضاه ويرضونه .

وروى أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب  
الرأسي - حينما ولوه رياستهم - أن يخطب فيهم ،  
فقال « وما أنا والرأي الفطين ، والكلام القضيب » .

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراء في

قولهم : « كل مجر في الخلا يسر ، لأن السنى يجري  
فرسه وحيدا في الخلا ينخدع بسرعته ، فإذا ساق به  
غيره تبين له بطؤه وضعفه ، ويضره مما المثل في  
وصف المغدور بما يتزعم في نفسه من ميزات  
ومواهب او بما يمتلك من أشياء يظن أنه وحده المالك  
لها ، بغير أن يتبع ما عنده بما عند الناس .

وكقولهم في من يتنصل من خلق فيه أؤمن وصف ثابت  
له ، فيدعى أنه طارئ عليه ، كان يكون جبانا فيزع  
أنه لم يجب إلا لمرض نزل به ، أو يكون حقير النشأة  
فيدعى أن الدهر هو الذي أفقده مجده : « قبل النفاس  
كنت مصفرة ، لأن المرأة التي كانت قبل الحمل مهزولة  
شاحبة تزعم بعد الوضع أن تحولها وشحوبها أثر من  
أثار النفاس .

وكقولهم في وصف من أرتكب عملا قبيحا يستحبى  
 منه ، ويريد أن يستخفى من الناس : « جاء كخاصي  
الغير » ، لأن خصاء الغير عمل قبيح شاذ إن صح أن  
يحدث فإنه لا يقوم به إلا الحقير .

3 - وقد يعتمد المثل على التشخيص ، أذ يضفى  
صفات العقلاء على غير العقلاء ، من شعور وادراك وفهم  
وتعلق ورزانة وتهور ، كقولهم في من يكتم السر : « أكتم  
من الأرض » ، كان الأرض انسان يسمع سرا ويكتمه .

وكقولهم في وصف البخيل : « أبخل من كلب » ، كان  
الكلب انسان يفهم ويحرص ويدخر ويمضي ويفعل كل  
ذلك عن روية وتدبر .

وكقولهم في وصف الاحمق : « أحمق من رجلة  
لانها تثبت في مجرى السيل فيقتاعها ، كانها صاحبة  
رأي وارادة و اختيار ، وهي التي اختارت نفسها هنا  
المكان لتثبت فيه .

- 4 -

فإذا ما انتقلنا إلى الخطابة وجئنا العرب يحتفون  
بها منذ العصر الجاهلي ويقتخرون بآجادتها ، ويمدحون  
بالبراعة فيها ، كقول لبيد مفتخرا :

وتقام ضيق فرجته ببيان ولسان وجبل  
وقول قيس بن عاصي المنقري في وصف قومه :  
خطباء حين يقوم قائمهم  
ببضم الوجه مصاقع لسن

ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وان الشجرة لتضرب  
بعمقها وتتفرع من أصلها .

لَا ام لَكَ ، بِلَ لا ابْيَاكَ ، قَدْ هَلَكَ وَامْلَكَ ، وَظَنَّتْ  
أَنَّكَ تَخْرُجَ مِنْ قَبْضَتِي ، وَلَا يَنْالُكَ سُلْطَانِي ، مِهِيَّاتَ ،  
مَا كَلَّ نَسِي لَبَ يَصِيبُ رَايَهُ ، وَلَا كَلَّ نَسِي رَايَ يَنْصَحُ فِي  
مَشْوَرَتِهِ ، أَمْسَ عَبْدُ وَالْيَوْمُ أَمْيَرٌ ، خَطَّةً مَا ارْتَقَاهَا مُثْلَكَ  
يَا ابْنَ سَعْدَةَ ،

وكقول زياد في رده على معاوية : « وجدتك كالغريق  
يغطيه الموج ، فيتشبث بالطحبل ويتعلق بارجل  
الضفادع ، طمعا في الحياة ، فاما سبك لي ، فلولا حلم  
ينهاني عنك ، وخوفي ان ادعى سفيها ، لاثرت لك مخازني  
لا يفسلها العاء ، وأما تعيرك لي بسمية فان كنت ابن  
سمية فانت ابن حمامه ، وأما زعمك انك تختطفني ،  
فهل رأيت بازيا يفرزعه صفير القنابر ؟ أم هل سمعت  
بنبيب اكله خروف ؟ ». .

وعلى هذا النطء كثير من الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية ، وبين الحجاج وقطرى ، وبين عبد الملك ومحمد بن الحنفية وغيرهم من كتبوا أو أملوا قبل عبد الحميد وابن المقفع .

- 6 -

على أننا نتعمق في التدليل ، ونتبسط في التوضيح ،  
فنعقد موازنة بين صفات النثر الفني عند عبد العميد  
وصفاته في الرسائل التي كتب قبل أن يخط عبد  
الحميد سطرًا .

قما نا نحد ؟

نجد اتفاقاً وتشابهاً في الجوهر ، ولا نجد اختلافاً إلا في الشكل والمظاهر .

وذلك انتا نلاحظ ان عبد الحميد كان يطيل انا ،  
ويوجز انا ، مراعيا ما يقتضيه المقام ، وما تتطلبه  
ال المناسبة ، ولكن لم يبتعد هنا التنوع ، لان الرسائل  
التي كتبت قبله كانت تطول احيانا وتقصص احيانا ،  
مجاهدة الموضوع ومراعاة للمقام .

ونجد في رسائل عبد الحميد حفارة ببسط الأفكار وتوليد المعاني أو تأكيدها بالترابط ، ولكن قد سبق

خطبه ، ليخفي لثنته ، وليس لها تعليل الا انه كان يعد خطبه ، ويتمهل في اعدادها .

على أن طابع الأعداد والتأنق يتضح في كثير من خطب العصر الاموي ، كخطبة زياد بالبصرة وخطبتي الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الله بعد مقتل مصعب بن الزبیر ، وخطبة أبي حمزة الشاری بالمدينة ، لأن هذه الخطب وناظائرها موحدة الموضوع مرتبة الأفكار ، بارعة التعبير متزنة الجمل ، محللة بسجعات لطيفة الواقع معتمدة على الوان من الخيال .

وهي بهذا كله قد استكملت خصائص التتر الفني  
التي قيل أنها جدت فيما بعد على قلم عبد الحميد  
وابن المقفع .

- 5 -

لم تكن الكتابة في زمان النبي صلى الله عليه وسلم  
بحاجة إلى تنمية واحتفال خاص ، لأن الغاية منها  
مقصورة على تبليغ الفكرة من أقرب طريق .

فَلَمَّا كَانَ عَهْدُ عُمْرٍ كَثُرَتْ رِسَالَتُهُ، وَيَدًا فِي بَعْضِهَا  
الاحْتِفالُ وَالتَّجْبِيرُ، كِرْسَالَتُهُ إِلَى أَبْنِي مُوسَى الْأَشْعَرِي  
فِي الْقَضَاءِ، ثُمَّ اتَّضَحَ التَّنْعِيقُ أَكْثَرُ فِي الرِّسَائِلِ  
الْمُتَبَادِلَةِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ وَبَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَزِيَادَ.

ولما مال الامر الى معاوية انشأ نبیوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عزّيت دواوین الخارج في عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يتولاها عرب حذقوا العربية كسامِل مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد بن يحيى .

ولاشك أنه كان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين  
فضل عظيم في النهوض بالكتابية الفنية ، لأنهم منقطعون  
لها ، ولأن بقائهم في الدواوين موصول بمهارتهم  
وتجويدهم \*

ولكن ليس معنى هذا ان التشر الفتي لم يعرف الا في رسائل عبد الحميد لأن كثيراً من كانوا يملون المرسال او يكتبونها يتذمرون التعبير وينقونه ، فجات رسائلهم بلية الصياغة طريقة الخيال ، كقول معاوية لزياد : «اما بعد فانك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النقمة ،

ثرا فنيا ، ولا يصح أن يمتهن به أحد لينفي عن العرب معرفتهم للنثر الفنى قبل عبد الحميد ، لأن الحكم ينبغي أن ينصب على الأصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل والخشبة والمظهر ، ولأن النثر الفنى ما كان لي فقد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التائق والاظناب في مطالع الرسائل وخواتتها ، وإنما كان يفقد خواصه الأصيلة لو أنه جاء خلوا من التجويد والتنمية وتوخى الجمال والتائير .

- 7 -

واند فقد كان النثر الفنى معروفا للعرب قبل عبد الحميد .

وكان العرب يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد .

ثم جعل هذا النثر الفنى يتطور ويترقى على السنة العرب الذين أملوا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة الاموية نهايتها كان هذا النثر قد شارف نضجه ، وكان عبد الحميد أول كاتب في الديوان اشتهر بكتابته ، وذاع صيته ، وظهرت في آثار قلمه خواص من ساققوه ومظاهر شكلية ابتكرها ونسبت إليه . ومعنى هذا أن النثر الفنى العربي لم يكن يوناني النشأة ولا فارسي المولد ، بل أنه نشا عربيا خالص العروية ، كما نشا الشعر وكما نشأت الخطابة والحووار والآمثال .

اما الطابع الفارسي واليونانى فقد تبين في النثر الفنى بعد ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من أدب الفرس وعلوم اليونان .

إلى هذا كثير من أملوا رسائل في العصر الاموى ، ومن كتبوا بأنفسهم .

ولقد يسترعى نظرنا أن عبد الحميد يجتاز احيانا إلى الخيال ليبرز أفكاره ، ويجسم عواطفه ، ولكن هذا ليس بجديد ، لأن في بعض الرسائل الاموية الوافدة من الخيال لا تقل طرافه وجمالاً عن أخيلاً عبد الحميد ، إن لم يقتربها بها واصالة ، كما نرى في رسالتى معاوية وزيد ، وكقول قطري للحجاج : « لئن أبرز الله لي صفتكم ، وأظهر لي صلعتك ، لتنكرن شعبك ، ولتعلمن أن مقارعة الابطال ليس كتسطير الأمثال » وكقول المهلب بعد انتصاره على الإزارقة : « فاعقب الله خير عاقبة ، وجاؤز بالنعمة مقدار الامل ، فصاروا لريثة رماحنا ، وضرائب سيوفنا » .

وانا كان عبد الحميد اعتمد على التائق والتجويد ، لانه كاتب مختص بالكتابة فان كثيرا من رسائل العصر اعدها كاتبها وتأنعوا فيها ونقروا .

على أنسى لست أنسى أن عبد الحميد كان يفصل الجمل ويقطعها متساوية الطول ومتتساوية القصر ، ولست أنسى أنه كان يزينها بقليل من السجع الذي لا استکراه فيه وأنه كان يرتب أفكاره في كثير مما يكتب ، ولكنني انكر أن هذه الصفات كلها محققة في كثير من رسائل العصر الاموى قبل عبد الحميد .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، كتائمه في البدء والختام ، وتنويعهما حسب المقام ، واطالته في البدء بعبارات التحميد والثناء ، ولكن هذا لا يصح أن ينهض دليلا على أنه أول من كتب في العربية